المطلب الثالث

أهمية الوقف في رفع مستوى التعليم

للوقف أهمية كبيرة في كل زمان ومكان ولا يستطيع أحد أن ينكر ما قدمه الوقف من خدمات اجتماعية جليلة للمجتمعات الإنسانية على مر العصور.

إن مـــا قدمـــه الوقـــف من خدمات لا ينحصر في نطاق معين أو إطار محدد بل - في الغالـــب- كافة مناحي الحياة الاجتماعية [1]، ومن ثم لم يقتصر على مساعدة الفقراء والمحتاجين أو إنـــشاء المستشفيات لعلاج المرضى وتقديم كل ما يلزم في هذه المجالات المذكورة. بل تعداه إلى ما هو أشمل من ذلك كما سيأتي معنا.

"لقد كان للوقف اهتمام دائم بالمؤسسات التعليمية، حيث كانت الدروس وحِلَق العلم، وحلقـــات تحفيظ القرآن الكريم في العصور الأولى يتم تمويلها من الأوقاف، و لم يقتصر الوقف على دعم المؤسسات التعليمية وتسييرها فقط، بل تطور أسلوب دعمه للعملية التعليمية ليواكب التغير في الحاجات التعليمية" [2] .

إن الوقف يعد من أهم المؤسسات التي أدت دوراً رائداً في تنمية التعليم وفي دعم مسيرة التقدم العلمي عبر تاريخ المجتمعات الإسلامية ولقد شملت الأموال الموقوفة على التعليم كثيراً من الجوانب المختلفة التي تخدم عملية التعليم والتعلم.

ومن أهم هذه الجوانب إنشاء المدارس والكتاتيب ودور العلم وتجهيزها وتوفير الطاقات المؤهلة من المعلمين والمربين والدعاة فيها.

---

(١) اتجه الوقف اتجاهاً جديداً في هدفه نحو المؤسسات العلمية وأهل العلم والقائمين على نشر تعاليم الدين الإسلامي، مما نـــشأ عـــنه اتجـــاه جديد أيضاً في الأموال الموقوفة نفسها إذ أصبحت توقف العقارات التي تستغل بالإيجار و لم يبق مقصوراً على ما يستغل بالزراعة والاستثمار؛ إذ أصبح من الضروري تحصيل النقد عن طريق الوقف ليصرف إلى بناء المدارس وحاجاتها ولمرتبات المعلمين فيها.

- أحكام الأوقاف - مصطفى الزرقا ص ١٤.

(٢) إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية د. فؤاد عبد الله العمر ص ٢٨.

وكـــان نظـــام الأوقـــاف هو العمود الفقري للمدارس والمؤسسات التعليمية الأخرى كالمعهد والزوايا والربط والخوانق والمكتبات كما أن الوقف كان هو العمود الفقري لمؤسسات الضمان الاجتماعي والمؤسسات الصحية كلها.

إن الأساس في توفير الأموال اللازمة إنما كان دائماً العقارات التي وقفها المحسنون، ومن هنا يتبين لنا الدور العظيم للأوقاف في نهضة المؤسسات التعليمية والاجتماعية والصحية، وبلغ عـــدد المـــدارس في بيت المقدس من القرن ٥-١٢ الهجري حوالي ٧٠ مدرسة كلها مدارس موقوفة تقدم التعليم مجاناً من ريع أوقافها بالإضافة إلى مرتبات ومخصصات للطلاب" [١] .

"و لم تقتصر الأموال الموقوفة على عمارة المدارس فقط، بل شملت توفير المساكن للطلبة وتقديم الطعام للطلاب والعاملين في المدرسة.

وقـــد انتشرت تلك المدارس في أنحاء العالم الإسلامي، ومن أشهرها على – سبيل المثال – المدرســـة الصالحية بمصر والمدرسة المعتصمية في بغداد والمدرسة القباشية في مكة، كما بلغت الكتاتيب التي تم تمويلها بأموال الوقف عددًا كبيرًا" [٢] .

كما كان من أهم المجالات التي شملتها أموال الوقف، إضافة إلى ما سبق هي " المكتبات والكـــتب العلمية المتخصصة التي كانت تلحق في الغالب بالمدارس أو المساجد أو المستشفيات وقـــد اســـتلزم وجود هذه المدارس وانتشارها أن يكون فيها دورٌ خاصة للكتب عرفت بأسماء مـــتعددة منها" [٣] خزانة الكتب، بيت الكتب، دار الكتب ومن الأمثلة على المكتبات الوقفية: دار الحكمـــة في القاهـــرة ،دار العلم في الموصل، دار العلم في بغداد، خزانة الكتب في حلب، الخزانة المالكية في مكة المكرمة.

"ونتـــيجة لإيقـــاف المكتبات في مختلف أقطار ومدن العالم الإسلامي انتشرت الثقافة

---

(١) انظر: مؤسسة الأوقاف ومدارس بيت المقدس د. كامل جميل العلي ص (٩٣-١١١) بدون رقم وتاريخ طبع- ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم العربي والإسلامي.

(٢) انظر: الدور الاجتماعي للوقف- عبد الملك أحمد السيد ص ٢٣١ .

(٣) من روائع حضارتنا – د. مصطفى السباعي – ص ١٣٦.

لتشمل جميع طبقات الناس رجالاً ونساءً وحتى بين المماليك والعبيد، وهكذا لم تفرق أموال الوقف الموقوفة على المكتبات بين غني وفقير بل سهَّلت للمجتمع سبل الوصول إلى أقصى المراتب العلمية والاجتماعية والسياسية "[1].

وأدت إلى نشر العلم ورفع مستوى المعرفة الإنسانية حتى في صفوف الغربيين الذين توافدوا على مدن الأندلس وصقلية والمغرب العربي ومصر والشام من أجل طلب المعرفة وتحصيل الثقافة.

ومن هذا يتضح جلياً أن التعليم هو الأساس في رقي المجتمعات، ونهوضها وهو معيار الحكم على تقدم أي مجتمع من خلال النظر في مدى الاهتمام بدور العلم والتشجيع على التعلم ورعاية طلبة العلم.

لقد كان الوقف يدعم الحضارة الإسلامية على مر العصور، ويقف خلفها، لذا نجد العلوم الإسلامية ازدهرت ازدهاراً عظيماً في ظل الموقف الداعم لها من الوقف فكانت الحضارة الإسلامية تشع على أوروبا التي كانت تعيش ظلاماً دامساً يوم أن كان المسلمون متمسكين بدينهم، مطبقين لمبادئه في حياتهم.

إن المتمعن في تطور التعليم على مر العصور الإسلامية، يجد أن للوقف دورًا رائدًا في النهوض بالتعليم والخدمات اللازمة للتفرغ له من رواتب للمعلمين وطعام ومسكن وكسوة لطلاب العلم.

ولذا فقد أثمر هذا الدعم، نهضة علمية كبيرة في المجتمعات الإسلامية.

إن التعليم أفاد إفادة كبيرة من الوقف، حيث ساهم الأخير في تشكيل المؤسسة التعليمية وتنظيمها.

"وكان الواقف يضع الشروط الخاصة بالمدرسين: كالعلم والورع والمذهب والاعتقاد والقدرة على الفتوى، والإلمام بمصنفات معينة، ويحدد منهج الدراسة وموضوعاتها الفقهية

(١) الدور الاجتماعي للوقف -- عبد الملك أحمد السيد ص ٢٦٩.

والأصولية والفكرة المختلفة.

وكـــان الواقف يوجه المؤسسة التعليمية في حقول معرفية، وتخصصات شرعية تقتضيها الحاجة والضرورة" [1] .

وقد انتشرت مؤسسات التعليم الوقفية على نطاق واسع وأصبحت سمة بارزة من سمات المجتمع الإسلامي.

وقد وقفت مدارس كثيرة ومتنوعة حسب اتجاهات الفقه الإسلامي.

"والواقـــع أن تعاظم دور الوقف في إنشاء مؤسسات التعليم أدى إلى وجود اهتمامات كـــبيرة بالتـــصنيف، وشـــجع كثيراً من العلماء على الكتابة والتصنيف، حتى برزت الحضارة الإســـلامية من خلال هذه الإسهامات، عاملاً مهماً في إثراء المعرفة الإنسانية ويمكن أن يفسر علـــى أساس ذلك وجود مخطوطات كثيرة، في متاحف الغرب مسروقة من المكتبات الموقوفة، ســـواءً كانـــت عـــربية أم فارسية ولعل الهجمة البربرية التي تعرضت لها بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية سنة ٦٥٦هـــ والتي قادها "هولاكو" وأدت إلى سقوط الخلافة العباسية، تكشف عن بعض جوانب الازدهار والتقدم العلمي، لدى علماء المسلمين وفقهائهم الذين رفدوا المكتبات الوقفية في بغداد بتصانيف وكتب معرفية وفكرية، بعيدة عن الحصر والإحصاء.

وقد وصف المؤرخون كثرة هذه المصنفات من خلال مشاهدات الخراب التي لحقت بها بعـــدما أُلقـــيَ قـــسم كبير من ذخائر المعرفة الإسلامية في النهر الذي تغير لونه واصطبغ بمداد الكتب" [2] .

إن الحركة العلمية كانت على مر العصور الإسلامية، حركـــة دائبة، وكان العمل فيها أشبه بالعمل في خلية النحل، ويعود ذلك للاهتمام بالوقف على التعليم من خلال إقامة المدارس وتجهيـــزها وبـــناء المساجد والجوامع وتهيئتها مما أسهم في نشر العلم وظهور مصنفات علمية

---

(١) انظر: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (١٢٥٠-١٥١٧م) ص ٢٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر: الوقف والعمل الأهلي في المجتمع الإسلامي المعاصر (حالة الأردن) د. ياسر الحوراني ص ٣١-٣٢.

وتراث فكري فريد.

"ويسهم الوقف عن طريق الحلق والمجالس المختلفة المنتشرة، والأوقاف المرصدة لذلك بتزويد المجتمع بطاقة جديدة من العلماء، وطلبة العلم وفتح أبواب جديدة لمجالات التصنيف وضبط العلوم، إلى جانب استيعاب المدارس الوقفية، لتؤدي كثيراً من أهدافها من خلال رسالة المسجد، وفي إطار الوقوف والأحباس المرصدة على المساجد.

وتعزيز رسالة المسجد في قضايا الفكر والعلوم الشاملة، وتهذيب الجوانب السلوكية للأفراد، يظهر شكل آخر للوقوف، وهو المعنيّ بحفظ السنة والتراث الخالد الذي تركه رسول الله ﷺ.

فنشأ الوقف لغايات الحديث النبوي وازدادت الأوقاف على المحدثين حتى بات الاهتمام السائد في التاريخ الإسلامي في قرونه الأولى لا يتناول أي قضية أو أي مسألة من مسائل المجتمع بقدر ما يتناول شؤون الحديث" [1] ومن النماذج التي توضح ذلك ما أورده ابن كثير –رحمه الله– في حوادث عام ٦٣١هـ "فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنين وستين فقيهاً وأربعة معيدين، ومدرسًا لكل مذهب، وشيخ حديث، وقارئين وعشرة مستمعين وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب ومكتبة للأيتام، ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها" [2].

ولا شك أن الوقف على المساجد وعلى السنة النبوية المطهرة، بدعم رجال الحديث الذين يعملون في خدمة السنة وعلومها كل ذلك أدى ويؤدي خدمات جليلة للمجتمع، ولقد أدلى العلماء بدلوهم في الوقف في القديم والحديث، حيث أوقفوا جزءاً من أموالهم على خدمة العلم والطلاب المشتغلين.

ويجدر بي في هذا الصدد أن أسوق بعض الأمثلة التي تبرز الجهود العملية لأئمة الدعوة

---

(١) انظر: الوقف والعمل الأهلي في المجتمع الإسلامي المعاصر– د. ياسر الحوارني– ص٣٠-٣٤.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير– إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء ١٣٩/١٣ مكتبة المعارف – بيروت.

في مجال الوقف بالمملكة العربية السعودية.

"فقد أسّس جمع من علماء الدعوة، على اختلاف أعصارها، مدارس يدرسون فيها الطلاب وقاموا بعملهم حسبة الله ﷻ، فقد ذكر الشيخ ابن بسام في ترجمة الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمهم الله-: وكان قرب بيته مدرسة لطلبة العلم من الغرباء ونفقتهم من بيت المال فكانوا يأخذون عليه العلم وتخرَّج على يديه أناس كثيرون.

أما بالنسبة للكتب:- فقد اشتهر أئمة الدعوة وعلماؤها بوقف الكتب؛ إذ كانوا يقفون كتبهم على طلبة العلم ويخص بعضهم الحنابلة منهم أو طلبة العلم في بلده، أو طلبة العلم في ذريته، ولكن الكتب إذ ذاك لم تكن كثيرة فلم يتسع العلم بوقفها، وإنما اشتهرت الكتب الموقوفة، حين اتسع نطاق المستفيدين منها بعد انتشار الكتب المطبوعة.

وقد قام جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود — رحمه الله- بطبع عدد كبير[1] من الكتب ووقفها على العلماء وطلاب العلم والمكتبات.

ومن أشهر الكتب الموقوفة وأنفعها وأكثرها مسيراً في الناس"مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" فقد تتابع على طباعة هذا الكتاب ووقفه الملوك الكرام: جلالة الملك سعود وجلالة الملك فيصل، وجلالة الملك خالد، وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود —أيده الله- ولا يزال العمل إلى اليوم قائماً على وقف الكتب وتوزيعها على طلاب العلم في أنحاء كثيرة من العالم، يقوم بذلك ولاة الأمر، والتجار والوجهاء من الناس، ومن الأوقاف المشهورة التي رعاها أئمة الدعوة وكان لها الأثر الظاهر في النهضة العلمية الشرعية في المملكة العربية السعودية بل كان لها أثرها في المملكة في سائر جوانب التنمية فيها، ما عرف بـ "بيوت الإخوان".

---

(١) قام الأستاذ/ عبد العزيز الرفاعي بحصر تلك الكتب في بحثه- عناية الملك عبد العزيز بنشر الكتب، وقد أحصى ثمانية وتسعين كتاباً. انظر: الجهود العلمية والعملية لأئمة الدعوة في مجال الوقف — د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق ص٣٠ -٣١ - ندوة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية - ١٤٢٠هـ، مكة المكرمة.

حيث بنيت بيوت في دخنة قريباً من مسجد سماحة الشيخ محمد بن ابراهيم يسكن فيها طلاب العلم، الذين يقدمون للدراسة على الشيخ وأخيه الشيخ عبد اللطيف وعلى الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، وغيرهم من العلماء.

وقد اهتم علماء الدعوة بتأسيس المكتبات لانتفاع طلاب العلم، فأسس سماحة الشيخ/ محمد ابن إبراهيم -رحمه الله تعالى - المكتبة السعودية، التي كانت عامرة بالكتب ومحلاً لمراجعة طلاب العلم.

إن اهتمام أئمة الدعوة في المملكة العربية السعودية، لم يكن منحصراً داخل حدود المملكة،فحسب، بل خارج حدود المملكة العربية السعودية" [1] .

وبعد هذا العرض الموجز والمركز لأهمية الوقف بالنسبة للتعليم على مر العصور يتأكد بصورة جازمة أن التعليم في المجتمعات الإسلامية، بحاجة ماسة للأوقاف كي يسهم في بناء عقول أبناء المسلمين، وإعداد العلماء المؤهلين ويشجع على البحوث العلمية التي تهدف إلى تنقية العقيدة وتصحيحها، وتحصين المسلمين من غوائل الغزو الفكري الذي يهدد المسلمين خصوصاً في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الأمة الإسلامية في ظل تكالب أعدائها ضدها وسعيهم لاستئصال شأفة المسلمين وتغييبهم عن دينهم وتسخير كافة الإمكانات المادية والتقنيات المتاحة لتحقيق مآربهم.

فالحاجة ملحة لاستعادة الدور الريادي المفقود للوقف في المجتمعات الإسلامية.

(١) انظر: الجهود العلمية والعملية لأئمة الدعوة في مجال الوقف د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق ٣٠-٣٤.